

# التساند وروح العمل الإيجابي

## من معالم المدينة الفاضلة في رسائل النور

بقلم

إيمان علي لاغا

طرابلس - لبنان

### المدينة الفاضلة ليست خيالاً يرتجى بل واقعاً مفقوداً:

كتمهيد لا بد منه لما نحن بصدد تعريفاً مبسطاً وحديثاً لعبارة المدينة الفاضلة جاءت به موسوعة ويكيبيديا الالكترونية ويختصر بما يلي:

"لقد تم التعارف عليها على أنها إحدى أحلام الفيلسوف المشهور أفلاطون، وهي مدينة يجد فيها المواطن والمقيم والزائر أرقى وأكمل أنواع الخدمات بأسلوب حضاري بعيداً عن التعقيد وبعيداً عن الروتين وبعيداً عن سوء المعاملة، المدينة الفاضلة مقترح لمدينة تختلف عن مدننا في المستوى الحضاري والسكاني والأداء الحكومي والخاص، المدينة الفاضلة مقترح لمدينة أساسها الانسان نفسه، بكل ما تحمله كلمة الفاضلة من معان سامية" انتهى التعريف.

مما يلاحظ من هذا التعريف ومما هو في بطون أمهات الكتب لا سيما الحديث منها أن مصطلح المدينة الفاضلة لا يزال حتى يومنا هذا مجرد مثاليات حلم بما أفلاطون وتغنى بها الفلاسفة من بعده كونها خيالات لا يمكن للبشرية أن تعرف لها واقعاً وإنما تمثل منتهى السمو والرقي الذي تهدف له البشرية في ظل حكم الفلاسفة العقلاء، ولا يزال يُتحدث عنها وكأنها المدينة الخيالية في تعنت متعمد أو جهل مثير للشفقة أغفل بنياناً خاصاً لمدينة فاضلة أخرى حقيقية واقعية، عرفت الحضارة الإسلامية في مختلف اطوارها، ومورست فيها حالات التفاعل مع المحيط والعلاقات الإنسانية البينية في أسمى معانيها، بدءاً من إمطة الأذى عن الطريق صدقة، ومروراً بلا ترر وازرة وزر أخرى وليس انتهاءً بقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لو عثرت بغلة في العراق لسألني الله عنها لما لم تصلح لها الطريق يا عمر، فحاز شهادة عدوه:

"حكمت فعدلت فأمنت فمنت".

ولا يسعنا سوى الأسف عند القول بأن نجم هذه المدينة قد أفل بعزوف أهلها عن مقومات الفضيلة فيها، فاهتز الهيكل وتداعى حوض الأمة المعنوي الذي يشكل جسارتها ويصون عرضها وتجتمع فيه قوتها، وانهارت خزيتها المعنوية التي تضمن منافعها العامة<sup>(١)</sup>.  
والتوصيف هذا هو لبديع الزمان سعيد النورسي، أراد منه أن يحدد حال الأمة عند انهيارها، وفرادة توصيف حالة الانهيار يصحبها أيضاً فرادة توصيف حالة البناء، وهذا هو الموضوع المتوخى من ورقة البحث هذه:

"جمع لبنات أساس المدينة الفاضلة المفقودة اليوم استرشاداً بما في رسائل النور من قبسات نورانية تعرض لما ورد في كتاب الله عزّ وجلّ وسنة نبيه محمد ﷺ".

ورقة البحث هذه هي محاولة لرسم دار من دور تلك المدينة الفاضلة التي تتراص كلها لتشكّل مجتمعاً عمرانياً استعاد فيه بديع الزمان سعيد النورسي معالم عصر النبوة وحاكى فيه أفعال الصحابة الكرام، وما العمل إلا الملمة لهذه الشذرات الذهبية من حنايا رسائل النور في عرض أشبه بعمل المهندس المعمار، يحدد المفهوم ويرسي القاعدة ويرفع البنيان ويحكم السقف ويسلم الدار لساكنيه، ولنبدأ معه ورشة البناء خطوة بخطوة:

## ١ - المفهوم والتصميم أساس فكرة الكيان:

هذه الدار المعنوية النموذجية، يكاد ينفرد سعيد النورسي من بين المحدثين في تحديد مفهوم تصميمها، فهي صورة عن الانسان ذاته، هذا الكائن المعجز الذي قال فيه رب العزة في معرض الحديث عن إعجاز الخلق: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

إن العالم هو إنسان مكبر يظهر من آثار الحياة مع ما تتضمن من منظومات الكائنات ما يظهره الجسد بين أعضائه وأجزائه، كالتساند والتجاوب والتعاون<sup>(٣)</sup>.

قال رسول الله ﷺ: "إنما المؤمنون في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى

(١) صيقل الإسلام ص ٤١٣.

(٢) سورة الذاريات، آية رقم ٢١.

(٣) صيقل الإسلام ص ٣٣٦.

منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى" (١).

هذا التساند والترايط حسب بديع الزمان سعيد النورسي هو سر مستتر في الكائنات كلها، ومنتشر فيها مثله مثل روح التجاوب في كل جانب... حيث يدل هذا التجاوب والتساند على أن الكل تحت أمر مدبر واحد ومرجعهم رب واحد القابض على النظام، هو الله لا إله إلا هو (٢). وبالتالي فإن التوحيد والعبودية لله الواحد الأحد والتسليم بالأمر هو أساس مفهوم التصميم القائم على وجوب أداء الوظيفة المناطة بالإنسان في هذه الحياة الدنيا والالتزام بما فرضه الله علينا من سير على الطريق المستقيم.

فعلى الانسان العمل ثم العمل ثم العمل، والله يتكفل بالنتائج.  
﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ (٣).

وما ذلك السعي لتحقيق هذه العبودية، إلا جهاد معنوي من أعظم شروطه عدم التدخل في الوظيفة الإلهية، أي بما هو موكول إلى الله. "بمعنى أن وظيفتنا الخدمة فحسب، بينما النتيجة تعود إلى رب العالمين وإنما مكلفون ومرغمون في الإيفاء بوظيفتنا" (٤).

فالتعاون والتساند والتجاوب والتعانق إنما هي أختام كبرى وبصمات ساطعة للتوحيد (٥).

وهذا العمل في جوهره تفاعل بين البشر كل حسب وظيفته، ليتكامل الجميع في نظام واحد يدعم بعضه بعضاً، ومن هنا مبدأ التساند وروح الإيجابية في العمل. وانطلاقاً من هذا المفهوم يتحدد التصميم.

## ٢ - قاعدة البناء ونقطة الاستناد:

يحرص المهندس البناء على جعل أساس الدار ثابتاً راسخاً قادراً على استيعاب الأحمال والاوزان التي ستلقي بثقلها عليه، وجاهزاً للتفاعل مع كافة العوامل المحيطة به، وبالتالي تتراصف مكونات هذا الأساس ويشد بعضها ببعض لتشكل وحدة متكاملة يحمل قوتها

(١) حديث شريف.

(٢) المثنوي العربي، ص ١١٠ بتصرف.

(٣) سورة التوبة أية ١٠٥.

(٤) السيرة الذاتية ص ٤٧٠.

(٥) اللمعات ص ٥٤٠.



وتساندكم القوي يطمئن قلبه" (١).

"اعلموا يا اخوتي أن أهم أساس لقوتنا ونقطة استنادنا هي التساند، وإياكم النظر إلى تقصيرات بعضكم البعض..." (٢).

يخلص هذا الدرس إلى أن أساس القاعدة يلحظ القوة والصلابة والمتانة ويتوخى المنعة بالتساند ويجذر من الفرقة والتشقق الذي يودي بالأساس إلى التزعزع وبالبناء إلى الانهيار. وعلى مثل هذه القاعدة الثابتة ينطلق المهندسون لرفع البنيان وشبك الجسور ونصب الاعمدة التي تحمل جدران البنيان المرصوص.

وأعمدة وجسور أبنية المدينة الفاضلة هي لطائف الأخوة والتعاون والشفقة.

### ٣- البنيان المرصوص: شدة لبناته بلطائف الأخوة والتعاون والشفقة:

إن الإنسان بسر التوحيد صاحب كمال عظيم بين جميع المخلوقات وهو أتم ثمرات الكون، وأسعد ذوي الحياة ومحاطب رب العالمين وأهل ليكون خليله ومحبوبه (٣)، سجدت له الملائكة بأمر من رب العالمين وعلمه الله الأسماء كلها، واستخلفه في هذه الأرض لعمارها وأمره بعبادته والعمل ضمن هذا السياق حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وهذه القيمة الغالية للإنسان المؤمن العابد لربه تستدعي سكنه في دار تتفوق على سواها ببنيان مرصوص تشابكت أعمدته وجسور حجارته جدرانها بفن ومهارة تحميه من قساوة الخارج، وتلقي به في دفء السعادة والحنان والهناء. وهذه المشاعر يولدها لدى المؤمنين شعور بإخوة لطيفة وصداقة قوية تربط فيما بينهم، بينما المحرومون من هذه الروابط يقاسون دائماً عذاباً مريعاً من ظلمات أليمة (٤).

إن الفرق بين مدينة الكافرين ومدينة المؤمنين أن الأولى وحشة مستحالة ظاهرها مزين، باطنها قسوة، صورتها مأنوسة سيرتها موحشة.... ومدينة المؤمنين (مدينة بديع الزمان الفاضلة)، باطنها أعلى من ظاهرها، معناها أتم من صورتها، في جوفها أنس وتحب وتعاون،

(١) الشعاعات ص ٣٦٤.

(٢) الشعاعات ص ٣٦٤.

(٣) الشعاعات ص ١٨.

(٤) الشعاعات ص ٧٩.

والسر: أن المؤمن يرى أخوة بين الكائنات وأنساً وتجباً بين أجزائها<sup>(١)</sup>.  
الأخوة والاخوة الإيمانية، تكاد تكون أكثر الكلمات تردداً في رسائل النور، متبوعة  
بكلمة المحبة والشفقة والإيمان، وبات مصطلح الأخوة الإيمانية رديفاً للوحدة حيث أن الأخوة  
الإيمانية تشكل حلقات الربط وجسور المحبة التي تشد البناء المرتفع، فوق قاعدة التساند  
الثابتة.

وكأني بديع الزمان يقف فينا خطيباً ويردد:

**أيها المؤمنون:**

إن كنتم تريدون حقاً الحياة العزيرة، وترفضون الرضوخ لالخلال الذل والهوان...! ادخلوا  
القلعة الحصينة المقدسة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾<sup>(٢)</sup>، وحصنوا أنفسكم بها.

**يا معشر أهل الإيمان:**

إن قوتكم تذهب أدراج الرياح من جراء أغراضكم الشخصية وأنايتكم... استهدوا  
بالدستور النبوي العظيم: (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً)<sup>(٣)</sup>.  
وعندها فقط تسلمون من ذل الدنيا وتنجون من شقاء الآخرة<sup>(٤)</sup>.

**فيا أهل الحق،**

امثلوا بما تأمركم به مئات الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة من التأخي والتحاب  
والتعاون واستمسكوا بكل مشاعركم بعري الوفاق مع إخوانكم<sup>(٥)</sup>.

هذه الأخوة تولد التعاون والاجتماع. وفيها سر عجيب حيث ترى كل صاحب كمال  
وصاحب جمال يرى في نفسه ميلاً فطرياً إلى أن ينضم إلى مثيله ويأخذ بيد نظيره ليزداد  
حسناً إلى حسنه، حتى أن الحجر، إذا خرج من يد المعقّد الباني في السقف المحدث يميل  
ويخضع رأسه ليماس رأس أخيه ليماسكا عن السقوط، فالإنسان الذي لا يدرك سر التعاون

(١) المثنوي العربي، ص ٨١.

(٢) الحجرات آية ١٠.

(٣) أخرجه البخاري برقم ٤٨١.

(٤) المكتوبات ص ٣٥٠.

(٥) اللعمات ص ٢٣٥.

لهو أجمد من الحجر، إذ من الحجر من يتقوس لمعاونة أخيه<sup>(١)</sup>.

والتعاون حقيقة كما يراه بديع الزمان سعيد النورسي مشاهد في الكون كله، ويضرب الأمثال لذلك بدءاً من عناصر إمداد الأحياء حتى معاونة الحيوانات للإنسان، وما شابهها من أمثلة غزيرة تظهر حقيقة التعاون الجارية بالتسخير الرباني، وتوضح بجلاء ربوبية رب العالمين وتشهد على وحدانيته<sup>(٢)</sup>.

وبذلك نرى تحقق المفهوم الذي هو الأساس في تصميم المدينة الفاضلة: التوحيد والعبودية لله حيث يتكامل النظام ويتوازن بقوة رب ذي جلال وبرحمة رحيم وبأمر حكيم. وكمثال تطبيقي آخر عن التعاون يورد سعيد النورسي الزكاة واصفاً إياها بقنطرة الإسلام وبها يتم التعاون بين أهله<sup>(٣)</sup>.

كذلك القومية الإيجابية المضادة للقومية السلبية، حيث يعتبرها بديع الزمان سعيد النورسي نابعة من حاجة داخلية للحياة الاجتماعية وهي سبب للتعاون والتساند وتحقيق قوة نافعة للمجتمع وتكون وسيلة إسناد أكبر للأخوة الإسلامية<sup>(٤)</sup>.

فنمو الشعور القومي في الشخص إما أن يكون إيجابياً أو سلبياً، فالإيجابي ينتعش بالشفقة على بني الجنس التي تدفع إلى التعاون والتعارف، أما السلبي فهو الذي ينشأ من الحرص على العرق والجنس الذي يسبب التناكر والتعاند. والاسلام يرفض هذا الأخير<sup>(٥)</sup>.

فالشفقة هي دون ريب لمسة الحنان والحب والرأفة التي تغلف هذا البنيان المرصوص وتلين من قساوته وتبعث فيه لذة روحانية تدعو كل انسان إلى الاشفاق على الضعفاء والعجز والمعوزين الذين يغشى الظلام عالمهم الأليم فتحول الشفقة عالمهم المحزن إلى عالم بهيج وتقلب عبرات الشكوى والألم والتعاسة إلى دموع الفرح والشكر والامتنان<sup>(٦)</sup>.

وفي حديثه عن هذه اللطيفة يتوجه سعيد النورسي إلى فئة خاصة من البشر وهن

---

(١) إشارات الإيجاز ص ٤٩.

(٢) الشعاعات ص ١٨٥ اقتباس مختصر.

(٣) إشارات الإعجاز ص ٥٣.

(٤) المكتوبات ص ٤١٥.

(٥) صيقل الاسلام ص ٣٣٤.

(٦) صيقل الاسلام ٤٨٥ بتصرف.

النساء، مثبتاً صراحة حقيقة تكامل الجنسين في بناء مدينته الفاضلة فيقول: "لما كان أهم اساس من اساس رسائل النور هو الشفقة، وإن النساء هن رائدات الشفقة وبطلات الحنان... ولقد غدت التضحية التي تنطوي عليها الشفقة والحنان ذات أهمية عظمى في زماننا هذا، يفتح بديع الزمان عند هذه النقطة نافذة على التربية الاسلامية ودور الأم والزوجة والابنة والاخت في إرساء الاسرة السليمة البعيدة عن الضلال القائمة على التضحية، فالشفقة والحنان الكامنين في الأمومة المغلفة بالإخلاص هي أزم شيء وأهم أساس في التربية الاسلامية، وتلك البطولة القائمة في الشفقة تضم بين جوانحها الاخلاص الحقيقي<sup>(١)</sup>.

أما الزوج الرشيد فهو لا يبني محبته لزوجته على جمال ظاهري زائل لا يدوم عشر سنوات، بل عليه أن يبني مودته لها على شفقتها التي هي أجمل محاسن النساء، وأدومه، كي تدوم محبته لها كلما شابت تلك الزوجة الضعيفة، إذ هي ليست صاحبة ورفيقته في حياة دنيوية مؤقتة وإنما هي رفيقته المحبوبة في حياة أبدية خالدة<sup>(٢)</sup>.

فتأمل معي أخي أي حياة أسرية ستضمها بيوت مدينتنا الفاضلة وأي جيل سعيد سيخرج من هذه البيوت التي تحضنها الشفقة والحنان!!!  
وأخيراً ها قد ارتفع البناء وتحضر المهندس المعمار لوضع السقف وحماية داخل الدار.

#### ٤ - سقف الإخلاص يظل البناء.

جاء في الحديث الشريف: (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه)<sup>(٣)</sup>.

يقول بديع الزمان سعيد النورسي: إن النظر والنية يغيران ماهيات الأشياء، فيقلبان السيئات حسنات، وكذلك تقلب النية الحركات العادية عبادات<sup>(٤)</sup>.  
فالنية روح وروحها الإخلاص، فلا خلاص إلا بالإخلاص<sup>(٥)</sup>.

(١) للمعات ٣٠٦-٣٠٩ بتصرف.

(٢) للمعات ٣١.

(٣) أخرجه البخاري.

(٤) المثنوي العربي ص ١٠٥.

(٥) المثنوي العربي ص ١٥٩.

والإخلاص في اللغة مشتق من فعل خلص الثلاثي ومعناه صفاً، وزالت عنه الشوائب، قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾<sup>(١)</sup>. جاء في شرح رياض الصالحين، أي مخلصين له العمل وإخلاص العمل لله أي لا يتبغي الانسان شيئاً بعمله سوى الله عز وجل<sup>(٢)</sup>.

ولعظم أهمية الإخلاص أفرد له بديع الزمان سعيد النورسي لمعة خاصة به وأوصى بقراءتها كل خمسة عشر يوماً على الأقل.

فتصفية النية بالإخلاص في العمل يعيدنا إلى مفهوم التوحيد والعبودية لله التي رسمت وفق تصاميمها مدينتنا الفاضلة.

إن الإخلاص واسطة الخلاص، ووسيلة النجاة من العذاب، فالعداء والعدا، يززعان حياة المؤمن المعنوية فتأذى سلامة عبوديته لله، إذ يضيع الإخلاص!<sup>(٣)</sup>. والسكن في بناء مع خلل في المفهوم وسقف ضائع كمن يبيت في العراء تنهشه وحوش الفلاة.

في هذا العصر العصيب، يقول النورسي: لا مناص لنا إلا بذل كل ما في وسعنا من جهد وطاقة كي نظفر بالإخلاص، فنحن مضطرون إليه، بل مكلفون به تكليفاً وأحوج ما نكون إلى ترسيخ سر الإخلاص في ذواتنا. وإذا أخللنا بالإخلاص نكون أفسدنا السعادة الأبدية لإرضاء منافع شخصية تافهة أمثال الرياء ونكون أيضاً من المتجاوزين حقوق إخواننا.

ويتابع النورسي محذراً تلاميذه من موانع الإخلاص: فيذكر الحسد والرياء والانانية والنفس الامارة بالسوء والطمع، ويحث بدعائه:

اللهم بحق سورة الاخلاص اجعلنا من عبادك المخلصين، المخلصين. آمين<sup>(٤)</sup>.

وبعد أن اطمان المهندس المعمار وارتاح باله لجهة متانة السقف، فخصلة الاخلاص هي سبب الصلابة والمتانة، وقف أمام باب داره والمفتاح في يده وصاحب الدار ينتظر المعمار ليسلمه المفتاح ويطابق المواصفات ويتفاهمان على المرحلة الختامية.

(١) سورة البينة آية ٥.

(٢) البوابة الالكترونية للمكتبة الشاملة shamela.ws.

(٣) المكتوبات ص ٣٥٠.

(٤) مقتبس باختصار من اللعة ٢١ - لمعة الاخلاص.

## ٥ - مطابقة النتيجة مع البداية:

المعمار أمام دار فريدة من نوعها، والمالك متلهف للدخول إليها، ودون ذلك شروط. فدار صممت على العبودية وأسست على التساند وسورت بالأخوة والتعاون والشفقة، وسقفت بالإخلاص، لا يدخلها إلا عبد من عباد الله المخلصين، تفتحت عيناه على الحقائق الايمانية، وتوكل على الله وأدرك الحكمة من قول رسول الله ﷺ: (خير الناس أنفهم للناس)<sup>(١)</sup>، وقوله ﷺ: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)<sup>(٢)</sup>.

ساكن هذا البناء فرد في المدينة الفاضلة، يحميها بأعلى ما عنده، ويخفض جناحه لإخوانه، يكون هدفه الاتحاد ومسلكه المحبة وشعاره ترك حب الذات والانانية، يقدم على العمل الايجابي البناء بدءاً من التبسم في وجه أخيه وليس انتهاءً بالتسامح والحفاظ على الامن والامان.

يقول بديع الزمان سعيد النورسي: "إن واجبنا القيام بأعمال إيجابية بناءة وليست تخريبية سلبية، بل القيام بوظيفة الايمان ابتغاء مرضاة الله وحده لا غير، من دون التدخل في أمور موكولة إليه تعالي، فنحن مكلفون أن نصمد صابرين على كل المضايقات لأجل إحلال النظام واستتباب الأمن في ربوع البلاد"<sup>(٣)</sup>.

وبذلك تتحقق مقاصد الشريعة القائمة على حفظ الحرث والنسل، فهذه الروح السامية التي خلقها الله ورفع من شأنها، تستحق الحفظ والحماية.

**أخيراً وليس آخراً:**

قام مهندسنا المعمار بإرساء دار من دور المدينة الفاضلة المفقودة، ودورها كثيرة أخرى تقوم على مثل العدل والشورى والاقتصاد والعمران لا تزال شذراتها الأخرى مثورة في رسائل النور.

(١) حديث حسن، ورد في صيقل الاسلام - المناظرات ص ٤٠٣.

(٢) رواه مسلم في كتاب الايمان ٧١.

(٣) الملاحق ص ٢٣٩.